إيبارشيَّة لوس أنجلوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
ليتورجيَّات. قناة لوغوس
نوفمبر سنة ٢٠١٥م

الكاتدرائيَّة المرقسيَّة بالإسكندريَّة
اجتماع الخُدَّام والخادمات
ديسمبر سنة ٢٠١٥م

القُدَّاس الإلهي وتصحيح رؤية (٣)
التَّكالب على تكريم رُفات وأجساد الشُّهداء والقدِّيسين
خارجاً عن تقليد الكنيسة

الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

المحتويات

مقدِّمة عامة ١
الأربعة قرون الأولى ٢
القرن الخامس الميلادي ٥
القرن السَّادس الميلادي ٧
القرن السَّابع الميلادي ٧
القرن التَّاسع الميلادي ٨
القرن العاشر الميلادي ٨
القرن الحادي عشر الميلادي ٩
القرن الثَّاني عشر الميلادي ٩
القرن الثَّالث عشر الميلادي ٩
القرن التَّاسع عشر الميلادي ٩
المفهوم الإيماني واللِّيتورجي لأوشية المجمع في القُدَّاس الإلهي ١٠

مقدِّمة عامة

إنَّ ما دفعني للحديث عن هذا الموضوع، هو ما رأيته من تكالب الأقباط على تكريم رفات وأجساد وأيضاً أيقونات الشُّهداء والقدِّيسين، خارجاً عن التَّقليد المتوارث في الكنيسة. ولاسيَّما حينما يكون هذا التكريم من داخل الصَّلوات اللِّيتورجيَّة، ولاسيَّما صلوات القُدَّاس الإلهي.

وتُعلِّمنا الكنيسة المقدَّسة أننا لا نقدر أن نستغني عن التَّشفُّع بالشُّهداء والقدِّيسين. فطلب شفاعتهم وصلواتهم هو أحد دعائم إيماننا. بل إنَّ الاقتداء بسيرتهم هو أمر كتابي: «اذكروا مرشديكم الذين كلَّموكم بكلمة الله. انظروا إلى نهاية سيرتهم، فتمثلوا بإيمانهم» (عبرانيِّين ١٣:٧).

والسِّر في تطويب الشُّهداء، هو أنهم يمجِّدون الله بشهادتهم له بالفم والدَّم معاً. **وللقدِّيس إغناطيوس الأنطاكي** الشَّهيد (٣٥-١٠٧م) قول بديع، يقول فيه:

[إذا لم نكُن على استعداد أن نموت لآلامه، فحياتُه ليست فينا] (الرِّسالة إلى ماغنيسيا ٥).

ويذكر **يوسابيوس القيصري** (٢٦٤-٣٤٠م)، أنه بالاستشهاد يُصبح للشَّهيد الحق بدمه أن يُسمع صوته في إعطاء الشَّركة

مرَّة أُخرى، للذين خرجوا عن الإيمان وتابوا، وطلب السَّلام والصَّفح والحل للخطاة[١].

ولقد حُسبت أجساد الشُّهداء منذ العصر المسيحي الأوَّل، كودائع مقدَّسة، توضع في أثمن الأكفان، وتُدفن أجسادهم تحت مذابح الهياكل في الكنيسة. حتى أنَّ المذبح الذي يحتفظ تحته برفات شهيد، يُصبح مذبحاً مدَّشناً، لإقامة الصَّلاة عليه.

ويقول **يوسابيوس القيصري** (٢٦٤-٣٤٠م) في ذلك: إنَّ امتلاكَ أيَّة كنيسة لجسد شهيد، أصبح بمثابة كرامة وشُهرة، بالإضافة إلى اعتبار ذلك توكيداً وضماناً لصحَّة إيمانها وعقيدتها[٢].

وكان طقس السَّهَر اللَّيلي بطول اللَّيل، والذي ينتهي بقُدَّاس في الصَّباح في تذكار أي شهيد أو قدِّيس، هو من تقليد الكنيسة المبكِّر. ومن أقدم الشِّهادات عن ذلك، هو ما يقوله **العلاَّمة ترتليان** (١٦٠-٢٢٥م):

[نحن نرفع الذَّبيحة عن الشُّهداء في يوم ميلادهم (استشهادهم) الذي هو ميلادهم الجديد للسَّماء وللسَّعادة، وذلك في يوم ذكرى استشهادهم][٣].

وأمَّا أنْ يحتل الشُّهداء والقدِّيسون مكاناً في الكنيسة، يطمس أو يشوِّش على عبادة الثَّالوث القدُّوس، الآب والابن والرُّوح القُدُس، وتكريم الذَّبيحة المقدَّسة الكائنة على المذبح، فهذا هو الذي أسميه التَّكالب على تكريم الشُّهداء والقدِّيسين.

وفيما يلي سردٌ تاريخي مبدئي لهذا الموضوع، لأنه لم يُدرس حتى اليَوم دراسة كافية.

الأربعة قرون الأولى

قانون: ''كلُّ من يحتقر الاجتماعات التي تُقام إكراماً للشُّهداء تذكاراً لهم، فليكن محروماً''[٤].

قانون: ''لا تجوز إقامة أعياد ميلاد الشُّهداء في الصَّوم الكبير. أمَّا تذكاراتهم فتُقام أيام السُّبوت والآحاد[٥]''[٦].

ولكن سرعان ما حدث شطط في بعض الجهات، من جهة تكريم أجساد الشُّهداء، ولم نكن قد تخطَّينا منتصف القرن الرَّابع الميلادي، وهو ما نقرأه في قوانين مجمع قرطاجنَّة (٣٤٥-٣٤٨م)، فيقول القانون رقم (٨٣) من قوانينه:

قانون: ''يجب أن يأمر الأساقفة بهدم المذابح التي نُصبت في الحقول وعلى جوانب الطُّرُق استناداً إلى أحلام أو رؤى كاذبة كمقامات للشُّهداء، ولم يكن فيها أجساد أو بقايا شهداء. وإذا سبَّب ذلك هياج الجماهير فليعظوا الشَّعب بعدم التَّردُّد عليها، ويجب ألاَّ يُسمح بإقامة تذكارات الشُّهداء إلاَّ حيث توجد أجسادهم أو بعض بقاياهم المقدسة أو أماكن معيشتهم أو استشهادهم بموجب تقليد قديم''.

وما يذكره القانون السَّابق ذكره مباشرة كقانون من مجموعة القوانين الإفريقيَّة، نجده منتشراً في كنيسة الإسكندريَّة أيضاً بواسطة الهراطقة من الأريوسيِّين وحلفائهم من الميليتيِّين، الذين كانوا يقومون بسرقة أجساد الشُّهداء من مقابر الكنيسة، ويعرضونها على النَّاس في المقاصير، ليؤثِّروا على مشاعرهم، ويجذبونهم إلى شيعتهم.

١- التَّاريخ الكنسي ليوسابيوس، ٥:١:٤٠

٢- التَّاريخ الكنسي ليوسابيوس، ٤:٢:١٤

3- *De Cor. Mil.* 3

٤- القانون رقم (٢٠) لمجمع غنغرا سنة ٣٤٠م.

وهو نفس ما يذكره البابا غبريال بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) في مجموع قوانينه:

''من حَمَلَه الكبرياء على أن يزدري بالذين يجتمعون في أيام الشُّهداء والقدِّيسين، والذي يصنعونه لهم، فليكُن محروماً''.

٥- لأنَّ تذكارات الشُّهداء والقدِّيسين، يُحتفل بها بإقامة القُدَّاس الإلهي، وطبقاً للقانون رقم (٤٩) لهذا المجمع، لا تُقام قدَّاسات في أيام الصوم الكبير باستثناء السبوت والآحاد.

٦- القانون رقم (٥١) لمجمع اللاَّذقيَّة (٣٤١-٣٨١م).

وهو نفس ما يذكره البابا غبريال بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) في مجموع قوانينه (ب١٩/١٥):

''لا يجب في الأربعين أن يُعيَّد للشُّهداء، بل يكونُ قد يُعَيَّدُ للشُّهداء يومَ السَّبت والأحد''. وواضحٌ هنا أنَّ البابا المذكور، كان يحفظ هذا التَّقليد في الكنيسة القبطيَّة حتى القرن الثَّاني عشر الميلادي.

ومن أجل هذا، فإنَّ كلاً من **الأنبا أنطونيوس** (٢٥١-٣٥٦م)، **والأنبا باخوميوس** (٢٩٢-٣٤٨م)، قد أوصى تلاميذَه أنْ يخفوا جسده عن النَّاس بعد نياحته، لئلاَّ يأخذوه ويقيموا له المزارات.

فتذكر سيرة **الأنبا أنطونيوس** التي كتبها **البابا أثناسيوس الرَّسولي** بقلمه، ما يلي:

[... وألحَّ الإخوة عليه في البقاء إلى جانبهم ليموت هناك، فلم يقبل لأسباب كثيرة، كما كان يُظهر بصمته. والسَّبب الرَّئيسي، هو أنَّ المصريِّين اعتادوا تكفين أجساد العُظماء وعلى الأخص الشُّهداء والقدِّيسين، وحفظها من دون دفنها تحت التُّراب. فكانوا يضعونها على منضدة، ويحفظونها داخل البيوت، ظانين بأنَّ هذا تكريمٌ للرَّاقدين. فطالما رجا أنطونيوس من الأُسقُف أن يُرشد الشَّعب، ووبخ الرِّجال، وزجر النِّساء قائلاً: 'إنه أمرٌ غيرُ شرعي وغير مقدَّس أبداً. فها أجساد البطاركة والأنبياء ما زالت محفوظة حتى هذا اليَوم في القُبور، كما أنَّ جسد المسيح نفسه وُضع في قبر، ووُضع حجرٌ عند باب القبر، وبقي مدفوناً إلى أنْ قام في اليَوم الثَّالث'. بهذا القَول أراهم أنَّ عدم دفن الأجساد، أمرٌ يخالف الشَّريعة، حتى ولو كانت الأجساد مقدَّسة. فأيُّ جسد أسمى وأقدس من جسد الرَّب؟ وعندما سمع الكثيرون هذا الكلام، ابتدأوا بدفن الأجساد وشكروا الرَّب، لأنهم تلقَّوا تعليماً كهذا. أمَّا هو، فإذ كان يعرف هذا ويخاف من أن يفعلوا هكذا بجسده، غادر بسرعة بعد أن حيَّا الرُّهبان الذين كانوا في الجبل الخارجي. ففضَّل الجبلَ الدَّاخلي حيث اعتاد الإقامة. وبعد أشهر قليلة مرض، فدعا النَّاسكَين اللَّذَين نسكا معه مدَّة خمس عشرة سنة وخدماه في شيخوخته، وقال لهما ... إذا كنتما تهتمَّان بي، فتذكَّرا أنني أبٌ لكما، ولا تفسحا في المجال للآخرين بنقل جسدي إلى مصر، كي لا يضعوه في بيوتهم. لهذا دخلتُ الجبل وأتيتُ إلى هنا. إنكما تَعلمان كيف كنتُ دائماً أوبِّخ الذين يفعلون هذا الأمر، حاثاً إيَّاهم على الكَّف عن هذه العادة. ادفنا جسدي تحت التُّراب واحفظا قولي، وهو ألاَّ يعرف أحدٌ غيركما، المكان، لأنني سأحصلُ عليه بلا فساد في قيامة الأموات][٧].

وهذا التَّوجُّه نفسه، نجده أيضاً في سيرة **الأنبا باخوميوس** (٢٩٢-٣٤٨م) أب الشَّركة. فعند قُرب نياحته، أوصى تلميذه **تادرس** بأن ينقل جسده من مكان دفنه إلى مكان آخر لا يعلمه سواه. وتخبرنا سيرته، كيف شدَّد على تلميذه في هذا الأمر:

[... بعد ذلك، التفتَ إلى **تادرس** وتكلَّم معه قائلاً: 'إذا ما افتقدني الرَّب، لا تترك جسدي في الموضع الذي سيُدفن فيه'. فأجابه بحزن: 'سأفعل حسب قولك'. بعد ذلك قبض على لحيته وضربه على صدره، وللمرة الثَّانية (قال له): 'يا **تادرس**، احترس. لا تترك جسدي في الموضع الذي سيُدفن فيه'. فأجابه أيضاً قائلاً: 'يا سيِّدي الأب، سأفعل حسب كلِّ ما تأمرني به بشُكر'. أمَّا **تادرس** ففكَّر في نفسه أنه يقول ذلك كثيراً بتوصية شديدة، لئلاَّ يحمل قومٌ جسدَه خلسةً، ويبنوا له مزاراً، كما اعتادوا أن يفعلوا بالشُّهداء والقدِّيسين، لأنه كان كثيراً ما يسمعه يلوم الذين يفعلون ذلك هكذا قائلاً: 'إن كلَّ من يصنع هذا، هو يتاجر بأجساد القدِّيسين'. بعد هذا قبض أيضاً على لحيته، وللمرَّة الثَّالثة قال له: 'يا **تادرس**، انتبه أن تتمِّم الكلام الذي قُلتُه لك سريعاً'][٨].

وعلى نفس هذا النَّهج سار **البابا أثناسيوس الرَّسولي** (٣٢٨-٣٧٣م)، وهو تلميذ **الأنبا أنطونيوس** أب جميع الرُّهبان، إذ صبَّ له ماءً على يديه، علامة تلمذته له. ففي رسالته الفصحيَّة رقم (٤١)، تكلَّم عن تكريم أجساد الشُّهداء[٩]، وموقف

٧- أثناسيوس الرَّسولي، سيرة أنبا أنطونيوس، فصل ٩٠-٩١، ترجمه عن اليونانيَّة ميشال نجم، أنطونيوس الكبير (منشورات النُّور)، بيروت ١٩٨٣م، ص ٩٩-١٠٠ . انظر أيضاً النَّص اليوناني مع ترجمته إلى الفرنسيَّة في:

GJM., Bartelink, *Vie d'Antoine* (Sources Chrétiennes 400), Paris 1004, p. 364-371.

٨- سيرة أنبا باخوميوس، النَّص القبطي الصَّعيدي. انظر النَّص القبطي في:

L.Th. Lefort, *S. Pachomii Vitae. Sahidice Scriptae* (Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 99-100, scriptores coptici 9-10), Paris 1933, Louvain 1952, p. 93-94.

وهذه الحادثة مفقودة في النَّص القبطي البحيري الذي لم يصلنا كاملاً، ولكنَّها موجودة في النَّص العربي والنَّص اليوناني. انظر النَّص العربي لسيرة أنبا باخوميوس في:

E., Amélineau, *Monuments pour server a l'histoire de l'Egypte chrétienne au IVe siècle. Histoire de Saint Pakhôme et de ses communatés* (Annales de Mussée Guimet 17), Paris, 1889, p. 647-648.

٩- ترجمها عن اللُّغة القبطيَّة وقدَّم لها، الدُّكتور صموئيل قزمان معوَّض، مجلَّة مدرسة الإسكندريَّة، العدد السَّادس عشر، السنة السَّادسة، العدد الأوَّل، فبراير ٢٠١٤م، ص ٢٥٧ وما بعدها. وقد نقلت من الفقرات (١٣-١٩) من هذه الرِّسالة.

الكنيسة منه. فيقول **البابا أثناسيوس الرَّسولي**: إنه يلزم أن تُدفن أجساد الشُّهداء في التُّراب، كسائر النَّاس، لأنَّ كلَّ الأنبياء والقدِّيسين، والرَّب يسوع المسيح نفسه، دُفنوا في قبور تحت الأرض، تنفيذاً لقول الله لآدم: «... لأنك تُراب وإلى تراب تعود» (تكوين ٣:١٩).

وأقتطعُ من هذه الرِّسالة الهامة، الفقرات التي تخدم موضوعَنا، مترجَمة عن النَّص القبطي الصَّعيدي الذي ترجمه الدُّكتور صموئيل القس قزمان معوَّض.

فيتكلَّم **البابا أثناسيوس الرَّسولي** (٣٢٨-٣٧٣م) عن الهراطقة من الأريوسيِّين والميليتيِّين فيقول:

[... عندما يردِّدون أباطيل، مثل بيلاطس وهيرودس في ذلك الزَّمان، تجرَّؤوا هم أيضاً أن يقاموا الرَّب ويزدروا بالقدِّيسين الذين رقدوا في اسمه، كما لو أنهم حانقون أنَّ من ينكرونه هُم، قد اعترف به هؤلاء. لأنَّ أجساد الشُّهداء الذين جاهدوا حسناً، لم يدفنوها[١٠] في الأرض، بل يشرعون في وضعها في توابيت وعلى محفَّات خشبيَّة، لكي يراها من يريد.

وهم يفعلون هذا بشكلٍ، كما لو أنه من أجل كرامة الشُّهداء. لكن الأمر في الحقيقة هو ازدراءٌ (بالشُّهداء). وهم يفعلون ذلك بسبب أمرٍ مشين، لأنه على الرَّغم من أنهم ليس عندهم أجساد شُهداء في مدينتهم، ولا يعرفون ما هو الشَّهيد، تآمروا على سرقة أجسادهم، وأخذِها من جبَّانات الكنيسة الجامعة، وهو يستولون على (أجساد الشُّهداء) الذين دُفنوا بالفعل، وينقلونها موبَّخين (على ذلك) بما إنهم أنكروا هذا الذي اعترف به الشُّهداءُ القدِّيسون، لكي يجدوا الوسيلة بواسطة أجسادهم، ليخدعوا هؤلاء الذين أضلُّوهم.

لكن نصيب إسرائيل ليس هو ضلال[١١]، و لم يسملِّنا آباؤنا هذا، لكنَّهم حَسبوا عملاً مثل هذا، تَعدٍّ للنَّاموس. في الزَّمن القديم قرَّر الله على آدم بحُكم قائلاً: «أنت تُراب وإلى التُّراب تعود»[١٢]. وسَرَت هذه الكلمة على الجميع، سَرَت على كلِّ واحد في آدم. وكلُّ الذين يموتون في كلِّ مكان يُدفنون ...

وكذلك مكتوبٌ عن كلِّ واحد من الذين فارقوا أجسادهم، أنهم دفنوا في مقابر. وقد تكلَّمت الأسفار (المقدَّسة) عن الأنبياء في موضعين أنهم دُفنوا قائلة: «ويلٌ لكم أيها الكَتَبة والفريسيُّون المراؤون، لأنكم تَبنون قبور الأنبياء وتزيِّنون مدافن الصِّدِّيقين»[١٣]. وكلُّ هؤلاء، قبورهم موجودة عندنا إلى هذا اليَوم، مثلما رأينا (قبور) أنبا بطرس وبولس في المدينة العظمى روما، وقبر يوحنَّا في أفسس، و(قبور) آخرين في كلِّ مكان حيثما رقدوا. لذلك، لن نتعجَّب والمكان الخارجي سيشهد عن جسد الرَّب أنه وُضع في قبر[١٤]. وأيضاً القبور التي تفتَّحت وقام كثيرٌ من أجساد القدِّيسين الذين رقدوا. وبعد أن قاموا، دخلوا المدينة وظهروا لكثيرين[١٥] ...

من ذا الذي سيقدر أن يقول إنه شاهد ببساطة جسد **بولس أو بطرس** أو آخرين من القدِّيسين غير مدفونين؟ ... هؤلاء المتهوِّرين في كل أمر فليقولوا إنْ كانوا قد رأوا جسد **إسطفانوس** أوَّل الشُّهداء؟ لكنَّهم لن يستطيعوا أن يقولوا. لذلك يمكن للواحد أن يُسمي مثل هؤلاء بأيِّ اسم إلاَّ اسم المسيحيِّين، لأنهم أغاظوا الرَّب، وصاروا أنجاساً أمام الشُّهداء، وقاموا الكتاب (المقدَّس) ...

لأنه إثْمٌ صارخٌ، التَّسوُّل وسرقة مقابر الشُّهداء، وألاَّ يُدفنوا مثل القدِّيسين، ولكن قبل كلِّ أحدٍ مثل الرَّب ...

من سيقدر أن يمقُت الهراطقة كاستحقاقهم؟ من سيرغب في أنْ يقابلهم وهم يُهينون أجساد القدِّيسين مثل

١٠- حرفياً: يخبؤها.
١١- انظر: إرميا ١٦:١٠
١٢- تكوين ١٩:٣
١٣- متى ٢٩:٢٣
١٤- انظر: متى ٦٠:٢٧ ؛ مرقس ٤٦:١٥ ؛ لوقا ٥٣:٢٣ ، ٤١:١٩-٤٢
١٥- انظر: متى ٥٢:٢٧-٥٣

الأنبياء الكذبة؟ من شاهد أجساد الشُّهداء والأنبياء مطروحة ومكشوفة دون أن يرتعد؟ هذا ليس من شيَم المسيحيِّين. لم يسملّنا بولس هذا. لم يفعل البطاركة ولا الأنبياء هذا، في أيِّ زمن، ولكنَّهم الميليتيوُّن الذين تآمروا على هذا بسبب التِّجارة ... الرَّب قال للذين تعدوا النَّاموس في ذلك الزَّمان وطُرِدُوا بالسَّوط: «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة»(١٦). هؤلاء أيضاً سيسمعونه بالتَّأكيد قائلاً: ''لا تبيعوا أجساد الشُّهداء، ولا تجعلوا اعترافهم الحسن تجارةً من أجل محبَّة المال''، لأنَّ من سيقترفون مثل هذه الآثام، حتماً سينالون هذا القصاص عينه ...].

ويُطلعنا الكتاب الثَّامن (٦:١٣) من كُتُب ''المراسيم الرَّسوليَّة''، والذي تمَّ تأليفه في أواخر القرن الرَّابع الميلادي، على أهميَّة الاعتناء بتذكارات الشُّهداء، فيقول: ''لنذكُر الشُّهداء القدِّيسين، لكي نصير مستحقِّين شركة جهادهم. ولنتوسَّل من أجل كلِّ الذين رقدوا في الإيمان''.

ولكن في ذات الوقت، فإنَّ الفصلَين الأوَّل والثَّاني من هذا الكتاب الثَّامن من ''المراسيم الرَّسوليَّة''، يشرحان لنا أمراً مهماً، فنقرأ ما يلي:

''أيُّ واحد من الذين يعملون آيات وعجائب، لا يدين أحد المؤمنين الآخرين، ممَّن لم يُستأهل لذلك. لأنَّ مواهب الله متنوِّعة، تلك التي تُعطى منه بالمسيح. فأنتَ قد نلتَ هذه، وذاك قد نال شيئاً آخر، ككلام حكمة، أو علم، أو تمييز أرواح، أو معرفة ما سوف يكون، أو كلام تعليم، أو صبر، أو عفَّة حقيقيَّة'' (المراسيم الرَّسوليَّة ٨:١:١٢). ونقرأ أيضاً: ''ليس كلُّ من يتنبأ، تقيًّا. وليس كلُّ من يُخرج الشياطين، قدِّيساً'' (المراسيم الرَّسوليَّة ٨:٢:٢).

ومن رسالة كتبها **القدِّيس إبيفانيوس** (٣١٥-٤٠٣م) أُسقُف قبرص سنة ٣٩٤م، يعترض فيها على تصوير الشُّهداء، بل وعلى تصوير المسيح والعذراء مريم، نعلم أنَّ الكنائس أقامت بالفعل صوراً لشهدائها منذ البدء، تكريماً وتذكاراً لهم.

القرن الخامس الميلادي

جاء القرن الخامس الميلادي، وانتشرت مزارات الشُّهداء، وكان الأمر في البداية بتشجيع من الكنيسة، وهو ما انتهجه **القدِّيس كيرلُّس الكبير** (٤١٢-٤٤٤م)، **والأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين** (٣٤٧-٤٦٥م). وذلك بسبب أنَّ العبادة الوثنيَّة ظلَّت قائمة في مصر حتى ذلك القرن، ولاسيَّما في مدينة الإسكندريَّة وضواحيها، ودأب بعض المسيحيِّين في مينوتيس Menuthis على بعد اثني عشر ميلاً شرق الإسكندريَّة، على الاشتراك في الاحتفال بالأعياد الوثنيَّة للإلهة المصريَّة إيزيس، وذلك من قبيل العادة الاجتماعيَّة، وليس للتَّعبُّد. فقام **القدِّيس كيرلُّس الكبير** (٤١٢-٤٤٤م) في سنة ٤٢٩م بتشييد مزار مسيحي في نفس تلك المنطقة، ووضع فيه رفات **القدِّيسَين أبا كير ويوحنَّا**، والتي كانت محفوظة في كاتدرائيَّة الإسكندريَّة، وذلك لتقديم بديل مسيحي لمثل هؤلاء.

ولقد ورد في رسائل **القدِّيس كيرلُّس الكبير** ما يشير إلى اهتمامه بتكريم الشُّهداء، وحرصه على عمل التَّماجيد اللاَّئقة بهم، فيقول:

[إنْ كنَّا نخاف أن نتكلَّم بالحق لأجل مجد الله لكي لا نسقط في ما ينفِّر، فبأي وجه سنصنع أمام الشَّعب تمجيدات الشُّهداء والقدِّيسين الذين نكرِّمهم] (رسالة ٩:٣)(١٧).

وأمَّا **الأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين** (٣٤٧-٤٦٥م)، فله عظة بعنوان: ''حيث أنه يليق بالمسيحيِّين''، وفيها يشجِّع المؤمنين على إقامة مزارات للشُّهداء، والصَّلاة فيها. بل هو نفسه قد فعل ذلك، في أثناء زيارته لمدينة أفسس وقت انعقاد المجمع المسكوني هناك، حيث ذهب إلى مزارات الشُّهداء هناك وصلَّى.

١٦- انظر: يوحنَّا ٢:١٦

١٧- انظر: دُكتور صموئيل القس قزمان معوض، الأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين، سيرته، عظاته، قوانينه، الجزء الأوَّل، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ٩٥

فيقول **الأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين**، في عظته ''حيث أنه يليق بالمسيحيِّين'':

[أنْ تذهب لمزارات الشُّهداء، وتُصلِّي، وتقرأ (الكتاب المقدَّس)، وتُرتِّل المزامير، وتتطهَّر، وترفع الذَّبيحة في خوف المسيح، هو أمرٌ حسن. هذا هو المثال (الذي رسمته) الكنيسة، وهذا هو قانون بيت الله ... انزعوا عنكم كلَّ هذه الرَّغبات الباطلة من كلِّ نوع، وتوجَّهوا (إلى مزارات الشُّهداء) ربوات ربوات، كما تذهبون إلى الكنيسة ... السُّلوك المتَّبع في الكنيسة، هو نفسه الذي يجب أن يُتَّبع في مزار الشَّهيد ...][١٨].

وواضحٌ هنا من كلام **الأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين**، أنَّ هذه المزارات لم تكن داخل الكنيسة أو مُلحقة بها، بل في أماكن منفصلة عن الكنائس. ومع ذلك كانت تُقام بها الصَّلوات والقُدَّاسات.

ولكن الذي حدث فعلاً، هو أنَّ الاحتفال بتذكارات الشُّهداء في أماكن مزاراتهم بعيداً عن الكنيسة، قد تحوَّلت إلى موالد تستمر أياماً، وينتشر فيها المجون والسُّكْر والسَّرقة وغيرها من الموبقات. وهكذا أفرط الأقباط إفراطاً زائداً في الاحتفال بأعياد الشُّهداء في مواضع استشهادهم، أو عند قبورهم، بعيداً عن سُلطان الكنيسة وإشرافها، متخطِّين ما دأبت الكنيسة على ممارسته في هذه الأعياد، من حيث إقامة صلوات وتسابيح تمتد طوال اللَّيل وتنتهي بالقُدَّاس الإلهي والتَّناول من الأسرار المقدَّسة، إلى السَّهر في اللَّهو والطَّرب، وتحويل يوم عيد الشَّهيد إلى ''مولد''. وهو ما ظلَّ سارياً في بعض المناطق في مصر حتى إلى عهد قريب.

بل انتشرت مزارات لشُهداء، لا يعرف أحدٌ عنهم شيئاً. فقام النَّاس ببناء مزارات وهميَّة، ودفنوا فيها عظاماً مجهولة المصدر، مدَّعين بأنها لأحد الشُّهداء، وذلك طمعاً في زيارة النَّاس لها، وتحقيق مكاسب ماديَّة. وهو ما يقوله **الأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين** في نفس عظته السَّابق الإشارة إليها، فيقول:

[يقول البعض: 'لقد ظهر لنا شهداء. وقالوا لي: إن عظامنا مخبأة في مكان ما'. ولما وصلنا إليهم وأمسكناهم في ضلالهم، وجدناها عظام كلاب. وآخرون لَمَّا كانوا يقومون بالهدم والحفر في بعض الأماكن، عثروا على شكل مبنى تحت الأرض، وشكل توابيت، فقالوا: 'إنهم شهداء'. هل كلُّ من وُضع في تابوت يكون من الشُّهداء؟ ألا يوضع فيها كثيرون (من غير الشُّهداء). مكتوب: «الغبي يصدِّق كلَّ كلمة، ويؤمن أيضاً بكلِّ شيء على الإطلاق، والذَّكي يكون منتبهاً» (أمثال ١٤:١٥). ما شأنكم أيها النَّاس بمثل هذا الأمر؟ فكنيسة المسيح، بيت الله، شامخة أكثر منهم جميعاً، لأنَّ الشُّهداء الحقيقيِّين أيضاً ظاهرون][١٩].

وهكذا نرى أنَّ آباء القرن الرَّابع الميلادي – أي **البابا أثناسيوس الرَّسولي** (٣٢٨-٣٧٣م)، **والأنبا أنطونيوس** أب الرُّهبان (٢٥١-٣٥٦م)، **والأنبا باخوميوس** أب الشَّركة (٢٩٢-٣٤٨م) – كانوا محقِّين فيما حذَّروا منه من قبل.

ولذلك نقرأ في القانون (٩١) من قوانين **البابا أثناسيوس الثَّاني** (٤٨٩-٤٩٦م)، في أواخر القرن الخامس الميلادي ما يلي: ''ومن أجل أعياد الشُّهداء، فلتكن هي أيضاً باحتفاظ عظيم وترتيب عظيم، يعملون لهم اجتماعات ويقيمون اللَّيل كلَّه في التزمير والصَّلوات والقراءات الطَّاهرة''.

وأمَّا في قانونه التَّالي مباشرة أي القانون رقم (٩٢)، فيقول: ''لا يمضي أحدٌ من الرُّهبان أو الرَّاهبات إلى أحد (موالد) المارتيريون أي مواضع الشُّهداء أو ملاهي المنحلِّين هناك. بل كلُّ دير من أديرة العذارى تقيم راهباته ليلة الشُّهداء في ديرهن كاجتماعهن (كأنهن اجتمعن) في مواضع الشُّهداء، يُصلُّون''.

١٨- نفس المرجع، ص ٩٢

١٩- انظر النَّص القبطي في:

E. Amélineau, *œuvres de Schenoudi*, vol. I, Paris 1907, p. 199, 207, 208.

مقتبس من: دُكتور صموئيل القس قزمان معوَّض، مجلَّة مدرسة الإسكندريَّة، مرجع سابق، ص ٢٦١

ونعرف من القانون رقم (١٩) وهي القوانين المصريَّة التي دُونت في أواخر القرن الخامس الميلادي، أو أوائل السَّادس: ما يلي: ''إذا مُسِكَ مُتَّعِظ، وقُتِل من قَبْل أن يَتعمَّد، [فليُدْفَن] مع الشُّهداء، لأنه تَعَمَّد بدمه وحدَه''.

القرن السَّادس الميلادي

تفاقمت مشكلة مزارات الشُّهداء في هذا القرن السَّادس الميلادي، والتي كانت تُقام بعيداً عن سُلطان الكنيسة، وهو ما نجده واضحاً في ''القوانين الكنسيَّة المنسوبة **للقدِّيس باسيليوس الكبير**''، وهي قوانين مصريَّة لأحد أساقفة الكنيسة القبطيَّة في القرن السَّادس الميلادي، ولكنَّه نسبها للقدِّيس باسيليوس لتنال شهرتها، وتُحفظ من الضَّياع.

فيقول القانون رقم (٣٣) منها: ''الكنيسة الجامعة التي اقتناها الله بدمه وحده لا تحتاج إلى كرامة الشُّهداء، بل يجب أن تكون مواضع الشُّهداء تحت سلطان الكنيسة الجامعة.

وإذا جَسَرَ أناسٌ غيرُ متأدِّبين وهُم في مواضع الشُّهداء، ويجحدون الكنيسة الجامعة وناموسها، ولا يريدون أن يكونوا تحت سُلطانها، فإنَّ الكنيسة الجامعة تفرِّقهم كهراطقة. وكما أنَّ الشَّمس لا تحتاج إلى ضوء سراج، هكذا الكنيسة لا تحتاج إلى أجساد الشُّهداء. فلأجل هذا يجب ألاَّ تنقض الكنيسة الجامعة[٢٠] إذا سمى واحد اسم شهيد على كنيسة، فهو غير حكيم، بل إن فِعْل هذا، هو تعليمُ تجارة[٢١]. فيكفي اسم المسيح الذي سُمِّيت به الكنيسة، لكي يكرِّمها. لأنَّ عروسة المسيح هي الكنيسة التي اشتراها بدمه المقدَّس. فأمَّا أجساد الشُّهداء المقدَّسين فيجب أن تُكمَّل قُدَّاساتهم في أماكنهم.

ولعلَّ واحداً من محبي الحَرَن يقول: 'أليس السِّر الذي يصنعونه في الكنيسة الجامعة وفي بيوت الشُّهداء واحد؟' ولكني أنا أقول: 'إنه لا يجب أن تكرَّم الكنيسة من جهة الشُّهداء، بل الشُّهداء يمجَّدون من جهة الكنيسة' لأنَّ المجد لها، لأنَّ الرُّوح القُدُس تكلَّم لأجل كنيسة واحدة جامعة، هذه التي أقيمت من جهة آبائنا الرُّسُل القدِّيسين''[٢٢].

ويقول القانون رقم (٣٠) من القوانين المصريَّة المنسوبة إلى **القدِّيس باسيليوس الكبير**: ''إذا اتفق صومٌ في عيد من أعياد الشُّهداء، ويفطر أُسقُف أو قسِّيس الشَّعب لأجل حجَّة موت الشَّهيد، فليُقطع ذلك الأُسقُف أو القسِّيس، لأنه صار سبباً لتلف أنفس كثيرة. وإذا فطروا هم من ذات أنفسهم فليُخرجهم الأسقف أو القسِّيس، لأنه لا يجب أن يُفطر في أعياد الشُّهداء إذا كانت أيام صوم. لأنَّ الشُّهداء ماتوا جياعاً عطاشاً، وأُحرقوا بالنَّار. ألا يجب لهؤلاء أن يتحفَّظوا بصوم الرَّب في بيعهم''[٢٣].

القرن السَّابع الميلادي

بحلول القرن السَّابع الميلادي، أصبح في مصر عدد هائل من مزارات الشُّهداء، موزَّعة على كلِّ مناطق مصر بوجهيها البحري والقبلي. وليس في مصر وحدها، بل في أماكن أُخرى أيضاً، واستغل البعض تكالب النَّاس على تكريم الشُّهداء، فزوَّروا سيرهم لتضليل النَّاس.

٢٠- كلمة ''الجامعة'' وردت في النَّص القبطي فقط للقوانين.

٢١- نعرف من القرن الثَّاني عشر الميلادي، أنَّ أبو نصر بن تُريك، وهو أخو صاعد بن تُريك الملقب بأبي العلاء والذي صار البابا غُبريال بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) كان قد بنى كنيسة على اسم الشَّهيد أبانوب في مصر القديمة.
انظر: الأب أنطونيوس عزيز مينا، مجموع قوانين غبريال بن تُريك البطريرك السَّبعين، جزآن، مركز التُّراث العربي المسيحي، بيروت ١٩٩٣م، ص ٣٩
ولكن نعرف من مجموع قوانين البابا غُبريال بن تُريك (البَاب ٥٨)، أنه لا تُسمى كنيسة باسم شهيد، وهو ما تجده في الحاشية التَّالية مباشرة.

٢٢- وهو نفس ما يذكره البابا غُبريال بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) في مجموع قوانينه، حيث يقول:
''قال باسيليوس في الفَصل الثَّالث والثَّلاثين: الكنيسة التي أنشأها الله بدمه وحدَه، لا تحتاجُ إلى كرامة الشُّهداء. بل الذي يجب، (هو) أن تكون مواضع الشُّهداء تحت سُلطان الكنيسة الجامعة. فإذا جَسَرَ أُناسٌ غير متأدِّبين، وهُم في مواضع الشُّهداء، (ف) يجحدون الكنيسة الجامعة وناموسَها، ولا يريدون أن يكونوا تحت سُلطانها، فإنَّ الكنيسة الجامعة تُفَرِّقُهم كهراطقة، لأنَّ الشَّمس لا تحتاج إلى ضوء سِراج. وإذا سَمَّى أحدٌ اسمَ شهيد على كنيسة، ما [هذا] (ب)حكيمٌ، بل فِعْلٌ (مثل) هذا مكروه. ويكفي اسم المسيح الذي سُمِّيَت به اسمُ الكنيسة، أن يُكَرِّمَهُم معها. فأمَّا أجسادُ القدِّيسين، فيجب أن تتكمَّل قُدَّاساتُهم في أماكنهم'' (البَاب ٥٨).

٢٣- وهو نفس القانون الذي يورده البابا غُبريالَ بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) في مجموع قوانينه (البَاب ١٨/١٩).

فنقرأ في القانون رقم (٦٣) من قوانين **مجمع ترولو** المنعقد سنة ٦٩٢م: ''إننا نمنع أن تُقرأ علينا في الكنائس سيَر الشُّهداء التي زوَّرها أو جمعها أعداءُ الحق للزِّراية بكرامة شهداء المسيح، ولحمل السَّامعين على الجحود. ونأمر أن تُلقى هذه الكُتُب في النَّار. وليكن كلُّ من يقبَل هذه القصص، أو يميل إلي تصديقها، محروماً[٢٤]''.

القرن التَّاسع الميلادي

كان كتاب الدِّسقوليَّة[٢٥] معروفاً عند الأقباط، منذ ما قبل القرن التَّاسع الميلادي، مترجماً إلى القبطيَّة الصَّعيديَّة نقلاً عن كُتُب المراسيم الرَّسوليَّة المُدوَّنة باليونانيَّة في القرن الرَّابع الميلادي، وذلك قبل أن يُترجم إلى اللُّغة العربيَّة عن القبطيَّة الصَّعيدية في القرن الحادي عشر وأيضاً في القرن الثَّالث عشر. فنقرأ ما يلي:

''اجتمِعوا بلا كَسَلٍ إلى البِيَع التي هي الكنائس، واقرأوا الكُتُب المقدَّسة، ورتِّلوا على من وُجِدَ من الشُّهداء وكلِّ القدِّيسين، الذين كانوا إخوتَكم، الذين رقدوا وهم مؤمنونَ بالرَّب'' (الفَصل ٣٣).

القرن العاشر الميلادي

الجدير بالذِّكر هنا، أنَّ سيَر القدِّيسين التي نقرأها اليَوم، قد طالها الكثير من الإضافات التي جعلت من شخصيَّة القدِّيس وكأنها شخصيَّة خارقة، وفوق العادة. ومن هنا صار تكريم النَّاس للشُّهداء والقدِّيسين، ليس بسبب قداستهم الشَّخصيَّة، بل بسبب أعمالهم الخارقة التي يقرأونها عنهم.

وبالنِّسبة لسيَر الشُّهداء والقدِّيسين عموماً، ينبغي أن نعلم أنَّ مُعظم السِّيَر اليونانيَّة الموجودة حالياً، أُعيدت صياغتها بواسطة **سمعان الميتافراستي** Simeon Metaphrastes (+٩٦٠م) وهو كاتب يوناني عاش في القرن العاشر[٢٦]. وقد قام **سمعان الميتافراستي** بإعادة كتابة سيَر جميع القدِّيسين المكتوبة باللُّغة اليونانيَّة، وصاغها من جديد بأسلوبه الخاص الجميل. وقليلٌ من هذه السِّيَر قد أعاد نساختها على بساطتها، كما دُوِّنت في المجموعات القديمة، إذ أعاد صياغة معظمها صياغة جديدة ببلاغة وفصاحة في الأسلوب، ليجعلها مقبولة القراءة في عصره[٢٧]. ولكن مع الأسف، ضاعت منها تفاصيل كثيرة تاريخيَّة، نظراً لانصراف المؤلِّف إلى الاهتمام بالسَّرد الأدبي الرَّفيع للقصَّة، فأصبحت غير دقيقة من الوجهة التَّاريخيَّة والعلميَّة. وما يؤسَف له أيضاً، أنَّ معظم السِّيَر التي تسبق زمن سمعان الميتافراستي، قد ضاعت، ولم يبق لها أثرٌ الآن، بسبب إقبال النُّسَّاخ على نساخة السِّيَر التي كتبها **سمعان الميتافراستي** بدلاً من السِّيَر السَّابقة له.

وهذه السِّيَر التي كتبها **سمعان الميتافراستي**، يضمُّها كتاب ''المينولوجيون – Menologion'' أي ''تذكارات القدِّيسين'' في الكنيسة اليونانيَّة وهو يقابل كتاب ''السِّنكسار'' في الكنيسة القبطيَّة ولكنَّه لا يُقرأ في الكنيسة، بل على المائدة.

٢٤– برسيفال: يمنع هذا القانون السيَر الخرافيَّة عن الشُّهداء الحقيقيِّين. فقد أدخل كثيرون على سيرهم قصصاً غريبة تجعلهم عُرضة للهُزء والسُّخرية عند النَّاس. ولم يقصد سير الشُّهداء الكذبة، لأنَّ سير هؤلاء لا تُقرأ في الكنائس على كلِّ حال.

٢٥– لدينا مخطوط يعود تاريخ نساخته إلى سنة ٩٢٦م، أي في القرن العاشر الميلادي، وهو بالقبطيَّة الصَّعيديَّة، مترجم عن كُتُب المراسيم الرَّسوليَّة التي دُونت باليونانيَّة في القرن الرَّابع الميلادي. وقد قام **تاج الرياسة أبي اسحق بن فضل الله** بترجمة هذا المخطوط من القبطيَّة الصَّعيديَّة إلى اللُّغة العربيَّة في سنة ١٢٩٥ ميلاديَّة، أي في أواخر القرن الثَّالث عشر الميلادي. أي أنَّ الأقباط كان لديهم كتاب الدِّسقوليَّة، بالقبطيَّة الصَّعيديَّة، قبل أن يكون باللُّغة العربيَّة. وهذا النَّص هو المعروف بالنَّص الثَّاني. وقد نشره دكتور وليم سليمان قلاده سنة ١٩٧٩م.

أمَّا النَّص الأوَّل للدِّسقوليَّة، والمعروف باسم النَّص العامي، فهو مترجم عن القبطيَّة سنة ١٠٥٠م، أي في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي. وقد نشره حافظ داود (القُمُّص مرقس داود) عام ١٩٢٤م، وطبَعَه طبعة ثانية عام ١٩٤٠م.

٢٦– لا يُعرف شيء عن حياته، ولكنَّه اكتسب شهرته من تدوينه لمجموعة سيَر القدِّيسين والتي يضمها كتاب ''المينولوجيون – Menologion'' في الكنيسة اليونانيَّة. ومن الكتابات الأُخرى المنسوبة له، مجموعة أقوال للقدِّيس باسيليوس الكبير وبعض الآباء الآخرين. وتعتبره الكنيسة البيزنطيَّة أحد قدِّيسيها، وتعيِّد له في ٩ أو ٢٨ من شهر نوفمبر من كلِّ سنة.

Cross, F.L. & Livingstone, E.A. *The Oxford Dictionary of The Christian Church* (*ODCC*), (2nd edition), 1988, p. 1275, 1276.

٢٧– ومن هنا كان اسمه ''ميتافراستس – Metaphrastes'' أي المترجم الذي أعاد صياغة السِّيَر القديمة للقدِّيسين بلُغة جميلة مفهومة.

وبهذا الخصوص يجب أنْ نلاحظ أنَّ عُلماء سيَر القدِّيسين، يهتمُّون كثيراً الآن بدراسة اللُّغات الشَّرقيَّة، وعلى الأخص اللُّغات القبطيَّة والسِّريانيَّة والأرمينيَّة والجورجيَّة، بسبب أنها تحتفظ بسيَر للقدِّيسين المكتوبة من قبل باليونانيَّة، ثمَّ تُرجمت إلى هذه اللُّغات الشَّرقيَّة، قبل أن يُعيد **سمعان الميتافراستي** صياغتها. ولذلك فهي تحتوي على تفاصيل تاريخيَّة قيِّمة، سابقة لتعديل **سمعان الميتافراستي**.

القرن الحادي عشر الميلادي

نعرف من قوانين البابا خريستوذولُّوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) الـ ٦٦ في القرن الحادي عشر، وهي قوانين توثق طقس الكنيسة القديم، والقديم جدًّا، أنَّ تذكارات القدِّيسين تتوقَّف تماماً ابتداءً من صلوات رفع بخور باكر قُدَّاس خميس العهد، وحتى إلى بداية السَّاعة التَّاسعة من يوم الجُمعة العظيمة، وهي ساعة نزول السيِّد المسيح إلى الجحيم، ليُخلِّص النُّفوس المحبوسة هناك منذ آدم الإنسان الأوَّل، والتي تقبل كرازة الرَّب بالخلاص الذي صار بالصَّليب.

وإنَّ كلَّ ذكر للشُّهداء أو القدِّيسين – باستثناء السيِّدة العذراء مريم والدة الإله – حتى في البَرَكَة الختاميَّة خلال هذه الفترة المذكورة،، هو جهل بالتَّقليد اللِّيتورجي لكنيسة الإسكندريَّة.

وهذا يؤكِّد لنا، أنه إن كانت تذكارات الشُّهداء والقدِّيسين عنصراً أساسياً في قُدَّاس الإفخارستيَّا، ما كان ممكناً توقفها في قُدَّاس خميس العهد. وهو نفس ما نجده أيضاً في توقف صلاة الصُّلح على سبيل المثال.

القرن الثَّاني عشر الميلادي

نعرف من مجموع قوانين البابا غُبريال بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) ما يلي: ''لا يجب في الأربعين (أي في صَوم الأربعين) أن يُعَيَّد للشُّهداء، بل يكونُ قد يُعَيَّدُ للشُّهداء يومَ السَّبت والأحد''[٢٨] (البَاب ١٥/١٩).

ومن قوانين الأنبا ميخائيل مطران دمياط التي دونت في سنة ١١٨٠م، نقرأ: ''ليس من عادتنا أيضاً أن نكرم أجساد الأطهار الشُّهداء بإحراقها بالنَّار، بل إنما كرامتنا لها، (هو) بموارتنا إيَّاها في الأرض، ودفنها في التُّراب'' (القَول ٤٩، الفَصل الخامس).

القرن الثَّالث عشر الميلادي

من قوانين **البابا كيرلُّس بن لقلق** (١٢٣٥-١٢٤٣م)، عن توزيع الخدمة والقراءة:
''فأمَّا أعياد الكنائس، فالعيد الذي للشُّهداء أو الملائكة أو غيرها، إذا كانت الكنيسة مرسومة باسمه، فهو للكبار من الكهنة''.

القرن التَّاسع عشر الميلادي

يذكر **ألفريد بتلر** A. Butler أنَّ **البابا كيرلُّس الرَّابع** (١٨٥٤-١٨٦٤م) اعترض على المبالغة الزَّائدة في تكريم الأيقونات، دحضاً للخرافات التي سادت في أيامه، حتى أنَّ ''العديد من أقدم وأجمل الأيقونات قد هلك''[٢٩]! ولم يكن هذا التَّصرُّف رفضاً منه للقدِّيسين وتكريمهم، وهو من له الفضل الأكبر في الحفاظ على ألحان الكنيسة القبطيَّة وجمعها وتشجيع تلقينها، وكثيرٌ منها في تمجيد القدِّيسين والشُّهداء، ولكن دحضاً للخرافات التي نشأت من المبالغة الزائدة في تكريم أيقونات الشُّهداء والقدِّيسين.

٢٨- وهو قانون منقول عن القانون رقم (٧٤) من قوانين مجمعي أنطاكية واللاَّذقيَّة معاً، وهي من المجامع التي تعترف بها الكنيسة القبطيَّة.
٢٩- بتلر، الكنائس القبطيَّة القديمة في مصر، الجزء الأوَّل، ترجمة الأستاذ إبراهيم سلامة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ٨٢

المفهوم الإيماني والليتورجي لأوشية المجمع في القُدَّاس الإلهي

لا ينبغي أن يفوتنا أنَّ صلاة مجمع الشُّهداء والقدِّيسين في القُدَّاس الإلهي، هو صلاة الكنيسة من أجل الشُّهداء والقدِّيسين، بدءًا من العذراء القدِّيسة والدة الإله.

فحيث تجتمع الكنيسة بأعضائها، وتلتف حول المذبح حيث المسيح حاضرٌ بجسده ودمه الأقدسَين، وبتقديس الرُّوح القُدُس، تستطيع الكنيسة – والحال هذه – أن تطلُب من أجل جميع الشُّهداء والقدِّيسين، وبالأكثر من أجل العذراء القدِّيسة كلَّ حين، والدة الإله، التي هي عضوٌ حيٌّ في جسد الكنيسة، وأُم الله، في آن معاً.

فليس عضوٌ واحدٌ من أعضاء الكنيسة، سواء الذين سبقوا إلى المجد، أو الذين يجاهدون لبلوغ المجد، في غنى عن صلاة الكنيسة لأجله كلَّ حين. فإنْ اجتمعت الكنيسة كلُّها في سرِّ الإفخارستيَّا بحضور المسيح، فهي قادرة أن تطلب من أجل كلِّ عُضو فيها. أي أنه إذا التأمت الكنيسة كلُّها حول المذبح بحضور المسيح، فهي تُصلِّي من أجل جميع الشُّهداء والقدِّيسين بتوسُّط الذَّبيحة الإلهيَّة.

ومن أجل ذلك، يبتدئ المجمع بقول الكاهن: ''تفضَّل يا ربُّ أن تذكر جميع القدِّيسين الذين أرضوك منذ البدء، آباءنا الأطهار رؤساء الآباء والأنبياء والرُّسُل والمبشِّرين والإنجيليِّين والشُّهداء والمعترفين، وكلَّ أرواح الصدِّيقين الذين كملوا في الإيمان. وبالأكثر القدِّيسة المملوءة مجداً، العذراء كلَّ حين، والدة الإله القدِّيسة الطَّاهرة مريم، التي ولدت لنا الله الكلمة بالحقيقة ...''.

ومن أجل ذلك، فمهما ذكرنا من أسماء شهداء وقديسين في مجمع القُدَّاس الإلهي، فهل نستطيع أن نحصر أسماءهم؟ وإن ذكرنا بعضاً منهم دون الآخرين، فهل يحق لنا هذا؟ إذاً؛ فمجمع القُدَّاس الإلهي في صورته الأوليَّة والبسيطة، والذي كان ينتهي بذكر والدة الإله القدِّيسة مريم، كان شاملاً على قصره، ومدركاً ألاَّ يذكر أسماء دون غيرها، لأنَّ مجمع القُدَّاس الإلهي هو أوشيَّة من جميع الشُّهداء والقدِّيسين بدون استثناء أحد منهم.

وفي ليتورجيَّة المراسيم الرَّسوليَّة (٨:١٢:٤٣، ٤٤):
''نقرِّب لك أيضاً (القُربان) من أجل كلِّ القدِّيسين الذين أرضوك منذ البدء، البطاركة، والأنبياء، والأبرار، والرُّسُل، والشُّهداء، والمعترفين، والأساقفة، والقسوس، والشَّمامسة، والإيبوذياكونين، والأغنسطسين، والمرتِّلين، والعذارى، والأرامل، والعلمانيِّين، وكلِّ الذين تعرف أنت أسماءهم.

نُقرِّب لك أيضاً[٣٠] من أجل كلِّ هذا الشَّعب، لكي تُظهره مملكة كهنوتيَّة، وأُمَّة مقدَّسة[٣١]، لمدح مسيحك. من أجل الذين في البتوليَّة والطَّهارة، ومن أجل أرامل الكنيسة. من أجل الذين في زيجات مكرَّمة، والحوامل، ومن أجل أطفال شعبك، لكي لا ترفض أحداً منَّا''.

هنا يتَّضح، أنَّ الإفخارستيَّا المرفوعة على المذبح، هي ليست لأجل الحاضرين الصَّلاة فقط، ولا لأجل الأحياء أيضاً الذين أعاقهم حدث قاهر عن الحضور، بل من أجل كلِّ امتلاء الكنيسة المقدَّسة، أي أعضاء الكنيسة الذين في السَّماء والذين على الأرض معاً. فكلُّ جماعة تلتئم حول المذبح، لتقيم الإفخارستيَّا برئاسة أُسقُفها حسب وصيَّة الرَّب، هي الكنيسة كلُّها، بكلِّ أعضائها، بحضرة المسيح، وملائكته المقدَّسين.

وفي الطَّقس البيزنطي، نجد هذا المعنى أيضاً. ففي قُدَّاس القدِّيس **يوحنَّا ذهبي الفم**، يقول: ''... نُقرِّب لك هذه العبادة النَّاطقة من أجل المتنيِّحين بإيمان؛ الأجداد والآباء، ورؤساء الآباء، والأنبياء، والرُّسُل والكارزين، والمبشرين، والشُّهداء، والمعترفين، والنُّسَّاك، وكلّ روح صدِّيق توفي بإيمان. وخاصة من أجل الكُليَّة القداسة، الطَّاهرة الفائقة البركات المجيدة، سيِّدتنا والدة الإله الدَّائمة البتوليَّة مريم. ومن أجل القدِّيس يوحنَّا النَّبي السَّابق والصَّابغ، والقدِّيسين المجيدين الرُّسُل الكُلي مديحهم.

٣٠– انظر: المراسيم الرَّسوليَّة ٨:١٢:٤٣
٣١– ١بطرس ٢:٩

والقدِّيس (فلان) الذي نقيم تذكاره الآن. وجميع قدِّيسيك، الذين بطلباتهم، افتقدنا يا الله، واذكر جميع الرَّاقدين على رجاء قيامة الحياة الأبديَّة ...''.

وفي قُدَّاس القدِّيس باسيليوس البيزنطي يقول: ''... ولا تجعل الاشتراك في جسد مسيحك ودمه المقدَّسَين، لأحد منَّا لدينونة، ولا لإدانة. بل لأن نجد رحمة ونعمة مع جميع القدِّيسين، الذين أرضوك منذ الدَّهر، الأجداد والآباء ورؤساء الآباء والأنبياء والرُّسُل والكارزين والمبشِّرين والشُّهداء والمعترفين والمعلِّمين، وكلّ روح صدِّيق توفى على الإيمان. وخصوصاً من أجل الكُلِّيَّة القداسة الطَّاهرة النَّقيَّة، الفائقة البركات المجيدة، سيِّدتنا والدة الإله الدَّائمة البتوليَّة مريم، مع القدِّيس يوحنَّا النَّبي السَّابق والصَّابغ، والقدِّيسين المشرَّفين الرُّسُل الكُلِّي مديحهم، والقدِّيس (فلان) الذي نقيم تذكاره اليَوم، وجميع قدِّيسيك، الذين بطلباتهم افتقدنا يا الله.

واذكر جميع الذين سبق رُقادهم على رجاء القيامة والحياة الأبديَّة، وأرحهم، حيث يفتقِد نور وجهك''.

ففي الكنيسة وحول المذبح في سرِّ الإفخارستيَّا، يصير للشَّعب معاً قوَّة الصَّلاة من أجل الأُسقُف والكهنة القائمين بخدمة الذَّبيحة المقدَّسة. ذلك لأنَّ السَّلام يملأ الكنيسة، ليس فقط حينما يعطيه الأُسقُف للشَّعب قائلاً: ''سلامٌ لجميعكم''، بل وأيضاً عندما يعطيه الشَّعب للأُسقُف قائلاً: ''ولروحك أيضاً''. ومن جهة أُخرى، يصير للأُسقُف مع الشَّعب بحضور المسيح، قوَّة الصَّلاة من أجل جميع الشُّهداء والقدِّيسين.

ولكن تعود الكنيسة في نهاية المجمع، وبعد أن كانت تطلب لأجل هؤلاء الشُّهداء والقدِّيسين، فتسأل أيضاً الرَّحمة بسؤالاتهم وطلباتهم. وهذا يتَّضح لنا بأكثر جلاء، في نهاية مجمع القُدَّاس الكيرلُّسي، حين يقول الكاهن: ''إننا لسنا أهلاً أن نشفع في طوباويَّة أولئك، إذ هم قيامٌ أمام منبر ابنك الوحيد، ليكونوا عوضاً عنَّا، يشفعون في مسكنتنا وضعفنا. كُن غافراً لآثامنا، لأجل طلباتهم المقدَّسة، ولأجل اسمك القدُّوس المبارك، الذي دُعي علينا''.

إنَّ الكنيسة تُصلِّي من أجل القدِّيسين المنتقلين لارتقائهم في المجد، ولكي ينالوا خيرات مواعيد الله، هذه التي أعدَّها لمحبِّي اسمه القدُّوس، وليستحقوا ملكوت السَّموات. وهم بدورهم يُصلُّون لأجلنا، لكي يكون لنا نصيبٌ وميراثٌ معهم.

وفي ليتورجيَّة القدِّيس سرابيون في القرن الرَّابع الميلادي، يظهر لنا بكلِّ وضوح، السَّبب الذي لأجله تُصلِّي الكنيسة من أجل القدِّيسين، فتقول اللِّيتورجيَّة: ''نتوسَّل أيضاً من أجل كلِّ الذين رقدوا، الذين تذكارهم هو[٣٢]: قدِّس هذه النُّفوس، لأنك تعرف الكُل. قدِّس كلَّ النُّفوس التي رقدت في الرَّب[٣٣]، احسبهم مع كلِّ قوَّاتك المقدَّسة، وأعطهم موضعاً ومسكناً[٣٤] في ملكوتك''.

ويشير **القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي** (٣١٥-٣٨٦م) إلى مجمع القدِّيسين الذي يرد في ليتورجيَّة كنيسة أورشليم، ويؤكِّد في عظاته على هذَين الجانبَين اللَّذَين سبق لنا ذكرهما، وهما أنَّ الكنيسة في ذكرها للقدِّيسين، تُصلِّي من أجلهم، وتطلب صلواتهم لأجلها، فيقول:

> [وبعد ذلك، نذكر أيضاً الذين رقدوا، أولاً البطاركة والأنبياء والرُّسُل والشُّهداء، لكيما يقبل الله طلباتنا بصلواتهم وشفاعتهم. ثمَّ نُصلِّي من أجل الآباء القدِّيسين والأساقفة الذين رقدوا، وعموماً لأجل جميع الذين رقدوا قبلنا. ونحن مؤمنون بأنَّ هنالك فائدة عظيمة للأنفس التي لأجلها نرفع هذه التَّوسُّلات، بينما تُقام الذَّبيحة المقدَّسة والمرهوبة][٣٥].

إنَّ الحياة الأبديَّة، هي نموٌّ لانهائي في المجد، إلى حد ملء قامة المسيح كقول الرَّسول بولس. وهل لملء قامة المسيح حدٌّ ونهاية؟ فالقدِّيسون ينمون في السَّماء من مجد إلى مجد، ومن عُمق إلى عُمق، ومن رؤية إلى رؤية، إلى أبد الأبد. فالرَّب حينما

٣٢- هنا تُذكر الأسماء.
٣٣- رؤيا ١٤:١٣
٣٤- يوحنَّا ١٤:٢

35- *PG* 33, 1116A-B.

يعطي نعمته بروحه القدُّوس، يعطيها على قدر استطاعتنا وقبولنا، لا على قدر غنى الرُّوح نفسه الذي لا يُحد. مثل مـــا رواه الرَّاهب سلوان حينما قال:

[أعرف رَجُلاً افتقده الرَّب بنعمته. لو سأله الرَّب: هل تريد أن أعطيك أكثر؟ لأجابه في ضعفه البشري: ياربُّ أنت ترى أنني سأموت إن أعطيتني أكثر. لأنَّ قوَّة الإنسان محدودة، ولا يقدر أن يتَّسع لملء النِّعمة].

وفي الحقيقة، كان **الأب سلوان** يقول ذلك عن نفسه. إذاً، فالذي يُحبُّ القدِّيسين، لا يُحبُّ فقط صلاتهم لأجله، ولكنَّه يسعد أيضاً بصلاة الكنيسة لأجلهم، وصلاته هو أيضاً لأجلهم في الكنيسة، كطفل صغير يطلب لإخوته وأخواته، من الآب السَّماوي، نعمة أوفر، وغنى أكثر. غنى الرُّوح الذي لا يُستقصى. الرُّوح القُدُس الحاضر في الكنيسة والحيُّ في أسرارها المقدَّسة، وفي قلوب المؤمنين، والذي فيه يتَّحد الجميع. فهو واسطة شركتنا مع القدِّيسين القريبين منَّا جـــداً، والذين يصغون إلينا، ويذكروننا كما نذكرهم، ويصلُّون ويشفعون من أجلنا. فما أبدع الكنيسة.

أمَّا ذكر أحد الشُّهداء أو القدِّيسين باسمه تحديداً، فيكون في التَّرحيم الذي يعقب المجمع، والذي يُقال في القُدَّاس المرقسي باللَّحن الطَّويل، والذي بدايته: ⲛⲁⲓ ⲟⲩⲟϩ ’’هؤلاء وكلُّ أحد ...‘‘، حيث يحدِّد الطِّلبة من أجل الذين رقدوا وتنيَّحـــوا في إيمان المسيح.

والجدير بالذِّكر أنَّ مرد ⲉⲩⲭⲉⲥ الذي كان يُقال بعد المجمع، فهو يختص بذكر أسماء البطاركة الرَّاقدين، حيث يقول فيه الشَّمامسة: ’’... ومن أجل الرَّاقدين ونياحتهم، وآبائنا القدِّيسين. القدِّيس مرقس الرَّســـول الإنجيلـــي رئـــيس الأســـاقفة والشَّهيد‘‘، ثمَّ يسرد الشَّمامسة، أسماء بطاركة الكنيسة، ابتداء من إنيانوس البطريرك، وحتى إلى آخر بطريرك رقد في الإيمان.